مجلة العباسة الدولية للاستزراع المائى - عدد خاص
المؤتمر العلمى الثالث - جامعة الأزهر – القاهرة – ١٧-١٨ أكتوبر ٢٠١٠

الثروة السمكية ومكانتها في الإسلام

أ.د/ يوسف إبراهيم يوسف
مدير مركز صالح كامل
للاقتصاد الإسلامي- جامعة الأزهر

الثروة بالمعنى العام في الإسلام:

الثروة بالمعنى العام تحتل مكانة كبيرة في الإسلام، حيث جعلها الله سبحانه قواماً للحياة، وطالب بتحصيلها، والمحافظة عليها، بل وجعلت السنة المطهرة إضاعتها أحد العوامل الثلاثة التي تدمر المجتمع وتحول دون قيامه واستمراره ومن ثم كانت إضاعتها أحد المكروهات الثلاثة التي يكره الله تعالى أن تكون موجودة في المجتمع. يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه: « **إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا. وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ** (رواه أحمد في مسنده).

هذا على المستوى العام حيث تمثل الثروة والمحافظة عليها، وعدم إضاعتها ركناً من أركان ستة يقوم عليها كيان الأمة، ولا تقل المحافظة على المال فيها، عن وحدة الأمة وعدم تفرقها، أو توحيدها لربها وعدم الإشراك به سبحانه، أو بناء الحياة على الديمقراطية السليمة التي يكون فيها لكل عضو من أعضاء المجتمع حق المشاركة في إدارة المجتمع، وإبداء الرأى فيما ينبغى أن تسير عليه الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. على هذا المستوى الهام تقف المحافظة على الثروة والحصول عليها، وليس فوق ذلك اهتمام بالثروة يفوق هذا الاهتمام في ظل التطبيق الإسلامي.

أهمية الثروة السمكية:

فإذا أتينا إلى أنواع الثروة ودرجة الاهتمام بها في الإسلام، وجدناه يضع كل نوع منها في المكان الذي يناسب دوره في الحياة الاقتصادية، ودرجة إسهامه في توفير احتياجات البشر في المجتمع، ومدى إمكانية الحصول عليها من مواطنها التي أودعها الله تعالى فيها، ومدى توفر هذه المواطن في كل وطن.

في هذا الخصوص نجد العناية الكبرى، والتركيز على النعمة العظمى التى أنعم الله بها على الإنسان، ممثلة في الثروة السمكية التي منحها الله تعالى للإنسان وبثها في شتى جنبات الأرض، حيث تمثل المياه - وهى موطن الثروة السمكية أربعة أخماس مساحة الكرة الأرضية، ومن ثم فلا تكاد توجد تجمعات بشرية لا تمتلك جانباً من هذه الثروة إلا فيما ندر.

التعامل القرآني مع الموارد:

يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل:٨٩] فما من قضية من القضايا أو معضلة من المعضلات، أو مشكلة من المشكلات إلا ونجد أصول حلها وطريقة التغلب عليها موضحة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم، والتي جاءت شارحة وموضحة لما ورد في الكتاب الكريم.

لقد أعطانا الله تعالى مفاتيح القضايا وطلب منا أن نستخدم هذه المفاتيح في فتح الأبواب والولوج إلى حل كل قضية. وتواجه بلادنا اليوم مشكلة الأمن الغذائي حيث لا نكاد ننتج مما نحتاج إليه إلا أقل القليل، يستوي في ذلك إنتاجنا من الحبوب مع إنتاجنا من اللحوم مع إنتاجنا من بقية السلع الاستهلاكية والسلع الإنتاجية.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن مختلف الثروات التي أنعم بها علينا وكان حديثه عنها مقصوداً به دفعنا إلى التفكر في كيفية استخدامها في إثراء حياتنا وسد احتياجاتنا، ولم يكن حديثاً للتسلية وإنما حديثاً لأخذ العبرة، وتحقيق الاستفادة، وحسن التوجه.

لقد حدثنا الله تعالى عن الحديد (مثلاً) في سورة عرفت بهذا الاسم، وقال عنه ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥] وكان ذلك دعوة لهذه الأمة بأن تكتشف البأس الشديد للحديد وأن تستخدمه في إيجاد المنافع المختلفة التي تسد بها حاجتها؟ وبخاصة صناعة وسائل الدفاع وحاجة البنية الأساسية للمجتمع.

وعندما جاء الأمر الأول للرسول الكريم صلوات الله وسلامه، وكان أمراً بالقراءة يقول: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق:١-٥]. عندما جاء هذا الأمر كان المقصود منه أن تكون القراءة والبحث العلمي والاستفادة من ثمرات الأقلام هو أول ما تهتم به هذه الأمة، ومن ثم تكون رائدة في ميدان البحث والابتكار والتطوير واكتشاف القوانين التي يستطيع الإنسان أن يستخدمها في نقل حياته إلى الأفضل في جميع المجالات.

وعندما حدثنا الكتاب الكريم عن الأنعام وصنوف الثروة الحيوانية وبين لنا كيف نستفيد من كل صنف من هذه الأصناف في إشباع حاجاتنا المختلفة. كان حديثاً موحياً بكل معنى.

فمنها ما يستخدم في الانتقال عليه من مكان إلى مكان، حامله الأثقال التي لا يطيق حملها الإنسان، ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ [النحل:٧] فخلق لنا سبحانه أدوات النقل، وأخبرنا بأنها ستتطور، وأن علينا أن نقوم بهذا التطوير حتى يتحقق ما أشار إليه سبحانه وتعالى فقال: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] فهو يدعونا إلى أن نُوجد هذه الوسائل التي لن نعلمها إلا بعد الوصول إليها، والتي يمثل إيجادها تحقيقاً لهذا الغيب الذي أشار إليه الكتاب الكريم. وخلق لنا أيضاً من الأنعام ما نقتات به ونعيش عليه، ونصنع منه الملابس

والبيوت التي تقينا الحر والقر، وتحقق لنا الراحة والخصوصية، فقال سبحانه ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل:٥] وخلق لنا سبحانه البحار والأنهار والبحيرات وسائر المجاري المائية، وجعلها موطناً لمختلف الكائنات، وميداناً للحصول على ما ينفع الناس، ويشبع حاجاتهم، وجعلها وسائل لربط الأقاليم بعضها ببعض، لتكون أداة اتصال وأداة تعارف ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل:١٤]

وهنا بيت القصيد في موضوعنا، أي هنا حديث القرآن الكريم عن الثروة السمكية ومكانتها في إشباع حاجات الإنسان، إنها اللحم الطري الذي ورد في الآية الكريمة. وذكره هنا كذكر خلق الأنعام وخلق النحل وخلق الأرض وخلق سائر ما جعله الله تعالى أداة لقيام حياة الناس، أي ذكره مجرد مفتاح لباب واسع، إن ولجناه جنينا منه الكثير، وحققنا الخير الوفير، وإن نكلنا عن استخدام هذا المفتاح ولم نلج هذا الباب فقد أضعنا مورداً من أهم الموارد التي خلقها الله تعالى لتقوم عليها حياة الناس، فحياة الناس لا تقوم على اليابسة فقط، إذ اليابسة لا تمثل من حجم الأرض إلا نسبة ضئيلة، أما المياه فهي الغالبة على مساحة الكرة الأرضية؛ ويصرف النظر عن التوازنات الكبرى التي تقبع خلف هذا التوزيع لليابسة والماء على ظهر الأرض، فإنه إشارة إلى أن الموارد التي تقوم عليها حياة الناس مبثوثة في المياه أكثر مما هي مبثوثة في اليابسة ودعوتنا إلى استخراج اللحم الطري من البحر ليس إلا إشارة لما يمكن استخراجه من هذا المورد متعدد الصنوف والأنواع والتي تستعصى على الحصر. بل إن من الملاحظات العجيبة التي يغفل عنها الناس أن مخلوقات الله تعالى في البحر كلها مما أباحة الإسلام وسمح باستخدامه في إشباع حاجات الإنسان، حتى الميتة من الكائنات البحرية يجوز أن نأكلها طالما أنها لم تصل إلى مرحلة الفساد الذي يضر بصحة الإنسان، يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه « **أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ**....»[رواه أحمد في مسنده]. وذلك على عكس الكائنات التي خلقها الله تعالى على ظهر اليابسة، فمنها ما يؤكل وينتفع به في سد حاجات الإنسان، ومنها ما حرم الله استخدامه والانتفاع به، وفي هذا إشارة واضحة لأهمية الكائنات البحرية، ومكانتها في سد حاجة الناس، وهنا نأتي إلى أهمية هذا المؤتمر الذي يعقد عن الثروة السمكية ومكانتها في الاقتصاد القومي.

إن الإشارات السابقة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم توضح لنا هذه الأهمية، وتطالبنا بأن نهتم بهذه الثروة، وبأن نجعل منها مصدراً أساسياً لإشباع حاجات الناس، ليس من البروتين فقط، ولكن من جميع احتياجات الإنسان من الكربوهيدرات والأملاح والفيتامينات والدهون وسائر ما يحتاجه جسم الإنسان، وليس ذلك إلا للثروة السمكية والكائنات البحرية، أما ثروات اليابسة فغالباً ما تمثل عنصراً واحداً من عناصر احتياجات الإنسان.

إن مطالبتنا بالشكر عقب استعراض ما من الله تعالى علينا به من النعم المخبوءة في المياه، لدليل آخر على وجوب اهتمامنا بهذه الثروة واستخدامها بما يليق بها من حيث حجمها وإمكانات تكثيرها، عن طريق الاستزراع والطرق العلمية في صيدها، حتى لا تتأثر هذه الثروات، وحتى لا يتعرض بعضها للانقراض. فالصيد الجائر محرم في الإسلام، لأنه ينافي الشكر الذي أمرنا به في نهاية الآلية الذي أشرنا إليها، ولا مانع من إعادة عرضها، حيث سبق أن أوردنا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل:١٤].

والتعليل الأخير لهذا العرض هو مقصودنا في هذه الفقرة، حيث إن الشكر في الإسلام يقصد به استخدام النعمة فيما خلقت له، فليس الشكر في الإسلام كلمة تقال كما درج الناس على ذلك، وإنما هو كما ذكرنا «استخدام النعمة فيما خلقت له»، فخلق اللحم الطري في البحار، أي خلق الثروة السمكية في المياه نعمة تتطلب الشكر لله الخالق. والشكر هو أن نعمل على حسن الاستفادة من هذه الثروة. ولعل جميع أبحاث مؤتمرنا هذا تصب في هذا الاتجاه، اتجاه الاستفادة من هذه الثروة التي منَّ الله تعالى بها علينا، فما من وسيلة من الوسائل وما من طريقة من الطرق تكون نهايتها توفير قدر أكبر وأصناف أفضل من هذه الثرة إضافة إلى الاقتصاد القومي إلا وتصب في ميدان الشكر لله تعالى على هذه النعمة.

كذلك كل وسيلة تقود إلى إنتاج أصناف ضارة أو تحمل أمراضاً للناس معينة، أو تؤثر على مخزون الثروة السمكية، حتى وإن ضاعفت كمية الإنتاج، فأنها منافيةً لشكر النعمة، ومحاربةً لله تعالى، ومن ثم فهي محرمة.

إننا كثيراً ما نغفل عن شكر النعم الكثيرة التي غمرنا الله تعالى، وما ينبغي لنا ذلك. إن كل نعمة ترفل فيها ونسعد بحصولنا عليها، هي من الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[النحل:٥٣].

وحسن استخدام النعم، وحسن استخدام البحث العلمي لتحقيق ذلك، يؤدى إلى زيادتها بل ومضاعفتها فيقول تعالى ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم:٧] إرشاد واضح وتعليم صريح لنا بأن نحاول الاهتمام بهذا القطاع ليمثل مصدراً أساسياً من مصادر الدخل القومي، نوفر حاجتنا منه على الأقل إن لم نتمكن من إنتاج المزيد الذي يسمح بالتصدير إلى بلاد لا تملك الإمكانات التي نملكها ولا مساحات المياه التي حبانا الله تعالى بها. ولا أضيف إليكم جديداً إن استعرضت أمامكم حجم ممتلكاتنا من المياه الإقليمية في البحار وحجم البحيرات التي نمتلكها وحجم قنوات النيل التي تخترق جنبات البلاد، فكلكم أهل اختصاص يعلم في هذا النطاق أضعاف ما أعلم، لكن يحز في نفوسنا جميعاً أن نملك كل هذا ثم لا نستطيع أن نوفر احتياجاتنا من الثروة السمكية، لا لنقص فيها - كما بينا - ولكن لسوء إدارة، وضعف إرادة، وغفلة منا عن هذا المصدر الهام من مصادر الثروة القومية وعدم

توفير الإمكانات المطلوبة للعلماء أمثالكم الذين يشتكون مما نشتكي منه، ويعانون مما نعاني منه. بل وعدم الاهتمام بتطبيق ما يقومون به من نتائج. وما يتوصلون إليه من حقائق.

إن هدف هذه الورقة المتواضعة أن نقول للمسئولين عن هذا القطاع إنكم في ميدان جهاد، وأنكم تقفون على ثغرة هامة من ثغرات الوطن وأنكم بطرق الأبواب وعدم اليأس قادرون بإذن الله تعالى على أن تجعلوا هذا القطاع يحتل المكانة التي تليق به بين قطاعات الاقتصاد القومي، وأننا نستطيع بجهودكم المخلصة أن توفر لهذا الشعب المسكين حاجته من البروتين الرخيص، بعد أن عز على الكثير من أفراده أن يرى اللحم أو يشاهد الدجاج.

إننا معكم نهيب بالمسئولين بأن يمدوكم بالإمكانات التي بها تستطيعون أن تحققوا ذلك، وأن يروا فيما تقومون به نوعاً أساسياً من الأمن القومي الذي ينبغي أن يعطى أولوية على غيره من أنواع الأمن القومي المختلفة. إنكم كعلماء تستطيعون تحمل المسئولية التي حملكم الله تعالى إياها، ولكن قبل ذلك على الدولة أن توفر لكم ما تتمكنون به، أو ما يمكنكم من حمل المسئولية وأداء الواجب.

أننا إذا عجزنا عن توفير ما يكفينا من القمح فإن في الثروة السمكية ما يمكننا من تقليل احتياجاتنا من القمح، فالمواد الغذائية كلها بدائل لبعضها البعض، وزيادة الإنتاج من نوع منها ينعكس بنقص الحاجة على نوع آخر، فللإنسان معدة واحدة إن ملأها سمكاً لم يحتج إلى أن يملأها قمحاً أو أرزاً. ومن ثم تستطيع الثروة السمكية أن تحل مشكلتنا التي نواجهها في ميدان إنتاج القمح وبقية الحبوب.

لقد خرجت مضطراً في كلمتي عن حدود الفكرة الذي أردت تقديمها، فقد أردت بورقتي هذه أن أوضح أن القرآن الكريم والسنة المطهرة قد أوليا الثروة السمكية عناية كبيرة ودعيا إلى ضرورة استخدام المفتاح الذي أشرنا إليه في ولوج ميدان الإنتاج الكبير للثروة السمكية، سواء عن طريق الاستزراع وتحسين السلالات، أو عن الطريق ركوب البحر واستخدام التقنيات المتاحة لمضاعفة الثرة السمكية التي نستخرجها من بحارنا وأنهارنا وبحيراتنا بل ومن أعالي البحار عند الحاجة إلى ذلك.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[فاطر:١٢]

فلننظر إلى اختلاف المياه، ما بين مياه ملحة، ومياه عذبه، يختلفان كل الاختلاف، فالأول ملح أجاج، والثاني ماء عذب فرات، ولكن الذي يجمع بينهما هو احتواؤهما معاً على الأسماك والكائنات البحرية الصالحة لسد حاجة الإنسان، وهذا ما يستوجب الشكر للخالق القادر على ذلك، والشكر - كما نكرر - يكون ببذل الجهد في الاستفادة من هذه النعمة، وإجراء الأبحاث التي تمكن من تكثير الكميات وتحسين السلالات في جميع المجالات التي يناقشها هذا المؤتمر الهام، والذي آمل

أن يتحقق لنا الأثر المرجو منه، وأن يتقدم بنا خطوات إلى الأمام في كل المجالات التي طرقتها أبحاثكم.

والله يوفقنا جميعاً إلى خدمة مصرنا العزيزة التي تستحق أن تكون في أوضاع مثلى غير ما هي فيه اليوم. وتحية لكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين